

جدلية الحرية والمعرفة في مسار الديمocrاطية



إذا ذكر الحق ذكر معه الباطل كدلالة أحدهما بالضد من الآخر، على نسق تعرف الأشياء بأضدادها، وإذا ذكر الحر ذكر العبد، ومنه إذا ذكرت الحرية ذكرت العبودية، هذه المصطلحات وأضدادها تكثر في الكتابات والأحاديث ويجري معها القلم واللسان مجرى المسلامات.

ولكن هل تصح قاعدة الضدية مع مصطلحي الحر والعبد أو الحرية والعبودية؟

الإجابة ستكون يسيرة فيما لو لم يكن لمفردة العبودية إلا معنى واحد لا يتعداه إلى غيره، فتكون العبودية حينئذ نقىض الحرية، ويتحقق لنا القول بأنّ "مفردة الحرية تصدق عندنا معناها إذا بأنّ" لنا معنى العبودية، غير أنّه لا يمكننا التسليم لهذه المقابلة بسهولة، لسبب بسيط أيضاً، هو أنّ "للعبودية معانٍ" عدة تلتقي في نقاط وتنقاطع في كثير منها، وتقاطعها يجعلنا نترى في هضم معنى الحرية كمعنى مضاد للعبودية.

وندرك معالم هذا الاختلاف من خلال تعريف معنى العبودية، فعرّفها ابن منظور (ت 711هـ) بقوله: "العبد: الإنسان، حراً كان أو رقيقاً. والعبد: المملوك خلاف الحر... وأصل العبودية الخضوع والتذلل..."

طرا ف الحرية والعبودية

فالعبودية بمقتضها العام تعني التذلل والخضوع، ولكن يقع الاختلاف في معاني الحرية من هذا الباب،

نظرًا لأنّ للعبودية كما في ظاهر الكلمة طرفين، فإذا انقاد أحدهما للآخر و الخضع له وأطاعه تتحقق العبودية، فالخاضع في كل الأحوال هو الإنسان ذكراً أو أنثى حراً أو عبداً، ومصطلح العبودية ينتقل من معنى آخر بنوع الطرف الآخر، فالعبد أو الرقيق يخضع لسيده المالك له، ولا يملك استقلالية قراره، وقد ورد عن الإمام جعفر بن محمد الصادق (ع) في تفسير قوله تعالى: (صَرَبَ اللَّهُ مَذْلَلَ عَبْدَهُ مَمْلُوكًا لَا يَقْدِرُ عَلَى شَيْءٍ) (النحل/75)، أي: "عَبْدًا مَمْلُوكًا لَا يَقْدِرُ عَلَى شَيْءٍ" ، فليس للعبد شيء من الأمر⁽²⁾، ويعلق الصفار على الآية الكريمة بقوله: "واعتبار التقابل بين العبد والحر يعطي أنّ كلا من الطرفين متصرف بخلاف أوصاف طرفه المقابل، فالعبد المفروض غير المالك لنفسه ولا شيء آخر من وسائل العيش ومتاع الحياة، وهو غير قادر على التصرف في شيء من المال أبداً.. فهو محبوس مقيد واقع تحت سلطة السيد والعبودية له. بينما الذي فرض في مقابلة يملك نفسه ومصيره وقد رزقه الله رزقاً حسناً وهو ينفق منه سراً وجهاً على قدرة منه وسلطة على التصرف بجميع أقسامه، وقد لمح القرآن إلى حرية التصرف هذه بقوله (ينفق) وتمتعه بالاستقلال التام في الاختيار والسلطة الحرة على العمل (سراً وجهاً). إذ إنّ هذه الأمور من أهم مظاهر الحرية في الإنسان وامتلاكه لمصيره وإن لم يصح بالحرية في الآية إذ أنّ الكنية أبلغ في التصريح⁽³⁾.

وإذا كان العبد لا يملك حق التصرف، هو في حقيقة الأمر في مقام الموت والعدم في قبالة من له حق التصرف، ولذلك فان البعض قابل الرق بالموت والحرية بالحياة، وخاصة عند تناولهم لتفسير آيات القرآن الكريم، فهذا النسفي (ت 710هـ) في تفسير قوله تعالى: (وَمَنْ فَتَّلَ مُؤْمِنًا خَطَأً فَتَحْرِيرُ رَقَبَةٍ مُؤْمِنَةٍ) (النساء/92) يوضح علة ذلك بقوله: "لَمَّا أَخْرَجَ نَفْسًا مُؤْمِنَةً مِنْ جَمْلَةِ الْأَحْيَاءِ لِزْمَهُ أَنْ يَدْخُلَ نَفْسًا مِثْلَهَا فِي جَمْلَةِ الْأَحْرَارِ لَأَنَّ إِطْلَاقَهَا مِنْ فِيدِ الرَّقِ كِإِحْيَا هَمَّا أَنَّ الرَّقَ مُلْحَقٌ بِالْأَمْوَاتِ إِذَا قُدِّمَ لِرَقَبَةٍ مُؤْمِنَةٍ كَمَا أَنَّ مَيْتَدًا فَأَنْجَدَ مَيْتَدَاهُ" (الأنعام/122)⁽⁴⁾.

واعتبر الواهي (ت 468هـ) في تفسيره للآية الأخيرة، الموت ضلاله والحياة هداية: "أَوَمَنْ كَانَ مَيْتَدًا فَأَنْجَدَ مَيْتَدَاهُ: صَالَ كافراً فَهَدَيْنَاهُ وَجَعَلْنَا لَهُ نُورًا دِينًا وَإِيمَانًا يَمْشِي بِهِ النَّاسُ مَعَ الْمُسْلِمِينَ مُسْتَضِيًّا" بما قدف الله في قلبه من نور الحكم والإيمان، كمن مثله كمن هو في الظلمات، في طلمات الكفر والضلالة ليس بخارج منها ليس بمؤمن أبداً⁽⁵⁾.

ومثله قال ابن منظور في لسانه في شرح كلمة (حياة) معراجاً على قوله تعالى: (وَلَا تَقُولُوا لِمَنْ يُقْتَلُ فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَمْوَاتٍ بَلْ أَحْيَيْنَا لَهُ زُورًا يَمْشِي بِهِ فِي الدُّنْيَا كَمَنْ مَذَلْتُهُ فِي الظُّلُمَاتِ لَيْسَ بِخَارِجٍ مِنْهَا) (الأنعام/122)، "جعل المهدى حياً وازمه حين كان على الضلاله كان ميتاً"⁽⁶⁾.

فيما قابل القرطبي (ت 671هـ) في تفسيره وهو يتعرض للاية الكريمة، بين الموت والجهل، والحياة والعلم قائلاً: "كان ميتاً بالجهل فأحييناه بالعلم، وأنشد بعض أهل العلم ما يدل على صحة هذا التأويل لبعض شعراء البصرة:

وفي الجهل قبل الموت موت لأهله
فأجسماهم قبل القبور قبور
وان" امرأ لم يحي بالعلم ميت
فليس له حتى في النشور نشور" (7).

نخلص من هذا أنَّ العبودية ليست موتاً فحسب بل هي جهل وضلال، والحرية حياة وعلم وهدى، ولهذا يستبعد البعض كون الجماهير بكليتها في بلد معين تزيد الحرية وتناضل من أجلها، إنما: "الواقع إنَّ الحرية للأحرار فقط، لابد أن تكون حراً أصلاً لكي تحارب من أجل الحرية، حرتك وحرية الآخرين" (8)، وأعتقد أنَّ هذا الفهم هو استغراق في معنى الحر والحرية، وإنْ فانَّ كل إنسان يتغذى الحرية، حتى الجاني المعترف على نفسه يطلب الحرية، لأنَّها نزعة داخلية.

هوية العبودية

والعبودية ليست مختصة ببلد دون آخر، فأي شعب يرتضى لنفسه الخضوع ينطبق عليه مفهوم العبودية، ولهذا لا معنى لقول إرسطو طاليس (Aristotle) (ت 322 ق.م.) إنَّ الطغيان: "يتمثل بمعناه الدقيق في الطغيان الشرقي، حيث نجد لدى الشعوب الآسيوية، على خلاف الشعوب الأوروبية طبيعة العبيد، وهي لهذا تتحمل حكم الطغاة بغير شكوى أو تذمر" (9).

فليست للعبودية هوية أو جنسية، فالبلدان الأوروبية سرت ولقرون طويلة تحت حكم طغاة عرفهم التاريخ، وما نشاهد اليوم في أوروبا من تمدن إنما كان مخاض حروب طويلة ولقرون متعددة، وأوروبا نفسها وحتى يومنا هذا تتعال ألمانيا وإيطاليا أن حكمتهما في القرن العشرين، قرن الحريات والديمقراطيات، شخصيات مثل هتلر (1933-1945م) في ألمانيا وموسوليني (1883-1945م) في إيطاليا، وقد أطاعهما الشعبان إطاعة عمياً، وهي في مفهوم أرسطو إطاعة العبيد، أو "طبيعة العبيد".

وبهذا اللحاظ فلا تعد العبودية مختصة بقوم دون آخر، مع الإقرار بوجود تفاوت بين شعب وآخر لتقبل العبودية والذل أو رفضهما، يقول الكاتبان البريطاني البروفيسور ديفيد بيتمام (Beetham David) والأيرلندي الدكتور كيفن بويلي (Boyle Kevin): "احتاج الفيلسوف الليبرالي جون استيوارت ميل (ت 1873م)، في القرن التاسع عشر، بأنَّ تأسيس السلطة الديمقراطية يتطلب مستوى متقدماً من الحضارة، واعتبر البلدان غير الغربية ليست مؤهلة للحكم الذاتي، وتحتاج إلى سلطة مطلقة رشيدة لكي تحكمها، ومن الأفضل أن تكون تلك السلطة بإدارة الغرب. وقال بهذا الاعتبار العرقى معظم المفكرين المتنورين في تلك الفترة، ومع إنَّ وجود الشعب المثقف مفيد بالتأكيد للديمقراطية، لأنَّه يعمل على تضييق الهوة بين الحكم والمحكوم، فليس هناك من دليل على أنَّ الافتقار إلى ثقافة منهجية يجعل الشعب عاجزاً عن

فهم ومناقشة المسائل التي تهمه، أو الاضطلاع بمسؤولية شؤونه الخاصة، ومن دراسة تاريخ الحكم المطلقة نتبين أن "السلطة الاستبدادية يمكن أن تكون أي شيء إلا رشيدة" (10).

العلم نقيس العبودية

ولاشك أن "العلم يطرد العبودية المذمومة والهداية تطرد الطغيان، من هنا حث الإسلام على صورة كسب المعارف والعلوم، لأن" المعرفة حياة الأمم، فقال رسول الله محمد (ص): "العلم فريضة على كل مسلم ومسلمة" (11)، وقال (ع): "اطلبو العلم من المهد إلى اللحد، اطلبوا العلم ولو بالصين" (12)، وقد حث الإسلام على تحرير العبيد وتعليمهم ليخرجوا من ربقة العبودية والجهل، وينقل لنا التاريخ انه في غزوة الطائف لم ينزل القوم على أمر الرسول (ص)، ثم نادى منادي رسول الله (ص): أيمما عبد نزل من الحصن وخرج إلينا من الحصن فهو حر، فخرج منه بضعة عشر رجلاً.. فأعتق رسول الله (ص) من نزل منهم، ودفع كل رجل منهم إلى رجل من المسلمين يموّنه ويحمله، وأمرهم أن يُقرؤهم القرآن ويعلموهم السنن (13). فالعلم ينفي الجهل والعبودية ويقف على المضد منهما، والمعادلة طردية، من هنا يقول سocrates في نقص من يأتي الإنسان لدى شيء كل "أن ذلك إرادته بموجب شرير أحد من ليس": (م. ق 399 ت) (Socrates) المعرفة، المعرفة تحرر، وتوصل إلى الحقيقة، والحقيقة سيدة مطلقة تأبى لمن وصل إليها أن يعود إلى عبودية الأهواء والتزوات" (14)، ولهذا فإن" الحرية عند سocrates: "تعني أن" امرءاً ما تحرر من الجهل وإنّه لا يفعل إلا ما يتطلبه العقل" (15)، وأما عند ديكارت (Descartes) (ت 1596): "فالحرية الحقيقية ليست قدرة التردد بين اختيار شيء ونقضيه بل هي الإرادة التي استعانت بالمعرفة واختارت الحق أي إنّها الإرادة التي تحكم فيها البواعث والحوافر الخيرة، ومن هنا فإن" المعرفة الطبيعية والنعمة الإلهية تزيدان الحرية ولا تنقصانها، تقويانها ولا تضعفانها.. كلما ازدادت معرفتي للحق والخير كلما ازدادت حرتي.. الحرية إذن تمر عبر عملية التحرر من الخطأ وهي في نهاية المطاف مع الخير المطلق" (16). وبناءً على هذا التصور فإن" الحرية والإنتقال من ربقة العبودية والاستبداد هي ثمرة المعرفة.

بيد أن" الكاتب المصري مصطفى أمين (ت 1997) له وجهة نظر مختلفة حول علاقة المعرفة بالحرية مستندًا إلى الأرقام، فهو يرى أن" الحرية والديمقراطية مقدمة على التعليم وليس العكس، يقول أمين في عموده اليومي الذي كان يكتبه في صحيفة الأخبار المصرية (عدد 1980/10/3): "من 200 عام كانت نسبة الأميين في أمريكا أكثر مما هي في مصر الآن، ومع ذلك نالت أمريكا الحرية الكاملة والديمقراطية الكاملة في تلك الأيام، وبهذه الحرية والديمقراطية أوصلت نسبة التعليم إلى 99%， فالحرية والديمقراطية هي التي تلد التعليم وليس التعليم هو الذي يلد الحرية والديمقراطية. إن" التعليم لا يحيي بالديمقراطية بدليل إنّه عندما تولى هتلر حكم ألمانيا، كانت نسبة المتعلمين فيها مائة في المائة، ومع ذلك جاءت الدكتاتورية التي حولت الشعب المتعلّم إلى رقيق وعبد" (17).

وربما عنى الكاتب من ذلك أن" الحرية هي تربية ورغبة في ممارستها قبل أن تكون مفردات ومصطلحات

وأرقاماً يتعلّمها المرء عن ظهر قلب، فالحرية مسألة فطرية يطلّبها الجميع بغض النظر عن مستوى التعليم، ولكن حجم الإقبال والدفاع عنها يتفاوت من إنسان آخر، والحرية يتوق إليها العالم والجاهل، لكن العالم أو المتعلّم يدرك أهميتها وتأثيرها في الحياة أقدر من غيره لأن المعرفة، وبخاصة المعرفة الخادمة للإنسان، توفر وعيّاً للإنسان يستطيع به إدراك الحياة والتمييز بين الحق والباطل، وبين الحرية والاستبداد، وعلى كل حال، فإنَّ حجم الإدراك ومسؤولية تحمل تبعات هذا الإدراك بعد تفعيله يعتمد على نوع المعرفة المتّحصلة، وقد دلت حركة التاريخ أنَّ الأمة التي كان العلم فيها قائماً والعلماء محترمين، ترفل بالحرية، لأنَّ الحرية مرتع العلم ورحم العلماء.

العبودية السياسية

والإنسان المسلوب الحرية يخضع للحاكم الطالم، ويُخضع للجباة والطاغوت، فهو عبد لتحقق شرط العبودية في علاقة هذا الإنسان مع الحاكم، وهو شرط التذلل والخضوع والطاعة، بغض النظر عن كون الطاعة صادرة عن قناعة أو إكراه، من هنا كان جهاد الطاغية وعدم الخضوع له يقع ضمن أدبيات الإسلام الواضحة، بل هو مما اُمر به الناس، قال القرطبي في تفسير قوله تعالى: (وَجَاهَدُوا فِي الْأَرْضِ حَقّ جِهَادِهِ) (الحج/78): "قيل: عنى به جهاد الكفار، وقيل: هو إشارة إلى امتثال جميع ما آمر الله به والانتهاء عن كل ما نهى الله عنه، أي جاهدوا أنفسكم في طاعة الله وردوها عن الهوى وجاهدوا الشيطان في ردّ وسنته، والظلمة في ردّ ظلمهم... وقد روي أنَّ رجلاً سأله النبي ﷺ أي الجهاد أفضل عند الجمرة الأولى فلم يحبه، ثم سأله عند الجمرة الثانية فلم يحبه، ثم سأله عند جمرة العقبة فقال ﷺ: "أين السائل؟".

كلمة عدل عند سلطان جائز" (18).

ولا شك أنَّ نوازع النفس لها علاقة مباشرة بقوّة أو ضعف سيطرة الحاكم الطالم، فالنفس التواقة للخير ترفض الشر، والنفس الغالبة عليها الشر ترفض الخير، ولذلك فهي تسهل للطالم استعباد الناس وسوقهم كعبيد، مادامت النفوس ميالة إلى الشر وقمع الخير. من هنا يحذر المفكّر الفرنسي، الكسيس دو توكيه في الأميركيّة الثورة وضعف قوّة عن يتحدث وهو الديموقراطي العالمي (Alexis de Tocqueville) (1859م ت) كتابه (الديمقراطية في أميركا) (America in Democracy)، يحذر من سيادة النزعة الفردية فهو يؤكد: "إنَّ النزعة الفردية في المجتمعات الديموقراطية سوف تؤدي في النهاية إلى ابتعاد الناس عن الحياة العامة وانشغالهم بمصالحهم المادية الضيقة مما يمهّد الطريق أمام الحكم الاستبدادي" (19)، فيما يتساءل مونتيسكيو (Montesquieu): "إنَّ الناس يحبون الحرية ويكرهون القهر والعنف وتتنافر من الطغاة فلماذا يعيش معظم الناس في العالم تحت الاستبداد؟ ويجيب قائلاً: إنَّ الشرط الوحيد لقيام الاستبداد هو الشهوات الإنسانية وهذه موجودة في كل مكان" (20).

إنَّ محاولة تأصيل مبدأ الدفاع عن الحريات هو الذي يحرك كل إنسان يريد الخير لبني جلدته ووطنه، ويناضل من أجل استقلال بلده وحرية مجتمعه، ولو فدى في هذا السبيل روحه التي بين جنبيه، فعلى سبيل المثال كان باتريك هنري (Henry Patrick) (ت 1799م) الوطني الأميركي الذي دعا إلى تسلیح الجيش

الأميركي في ولاية فرجينيا ضد القوات البريطانية، كان هذا الوطني المتعصب لبلده قد رفع في حرب المواجهة مع بريطانيا شعار: "أعطني حرتي أو اعطني الموت"(21).

إذ فالحياة لا تكون حياة حرة وكريمة إلا مع الحرية، والموت لا يكون موتاً مطمئناً إلا من أجل الحرية، وبذلك يتحقق للإنسان وللمجتمع سعادة الدارين.

الهوا مش:

- 1- ابن منظور، محمد بن مكرم، لسان العرب ج 15 (بيروت، دار صادر) ص147.
- 2- العروسي الحويزي، عبد علي بن جمعة، تفسير نور الثقلين ج 2 (قم إيران، المطبعة العلمية، ط 68).
- 3- الصفار، فاضل، ضد الاستبداد (بيروت، دار الخليج العربي للطباعة والنشر، ط 1، 1418هـ/1997م) ص129.
- 4- النسفي، عبد الله بن أحمد بن محمود، تفسير النسفي ج 1، ص240.
- 5- الواحدي، علي بن احمد، الوجيز في تفسير الكتاب العزيز (تفسير الواحدي)، تحقيق: صفوان عدنان الداودي ج 1 (بيروت ودمشق، دار القلم والدار الدمشقية، ط 1، 1415هـ) ص373.
- 6- لسان العرب ج 14 (مصدر سابق) ص212.
- 7- القرطبي، محمد بن أحمد الأنصاري، الجامع لأحكام القرآن (تفسير القرطبي) تحقيق: أحمد عبد العليم البردوني ج 7 (القاهرة، دار الشعب، ط 2، 1372هـ) ص78.
- 8- عبد السميع، د. عمرو، الديمقراطية (القاهرة، الدار المصرية اللبنانية، ط 1، 1418هـ/1998م) ص113.
- 9- إمام، د. إمام عبد الفتاح، الطاغية .. دراسة فلسفية لصور الاستبداد السياسي (الكويت، المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب، ط 2، 1996م) ص293.
- 10- د. ديفيد بيتهام ود. كيفن بويلي، المدخل إلى الديمقراطية، ترجمة: احمد رمو (دمشق، وزارة الثقافة، 1997م) ص42-43.
- 11- البغوي، الحسين بن مسعود الفراء، تفسير البغوي، تحقيق: خالد العك، ومروان سوار ج 2 (بيروت، دار المعرفة، 1407هـ/1987م) ص340.
- 12- الرومي، مصطفى بن عبد الله القسطنطيني، كشف الظنون عن أسماء الكتب والفنون ج 1 (بيروت، دار الكتب العلمية، 1413هـ/1992م) ص51.
- 13- انظر: الشيرازي، محمد، ولأول مرة في تاريخ العالم ج 2 (الكويت، ديوانية الإمام الشيرازي، ط 2، 1417هـ/1997م) ص111.
- 14- د. زيادة، معن، الموسوعة الفلسفية العربية، ج 1 (باريس، بيروت، معهد الإنماء العربي، 1988م)

- 15- العلوى، مجتبى، "الحرية .. نصوص ونظارات" مجلة النبأ (بيروت، المستقبل للثقافة والإعلام، السنة 6، العدد 43، 1420هـ/2000م) ص137.
- 16- الحرية .. نصوص ونظارات (مصدر سابق) ص135.
- 17- الأنصارى، د. عبد الحميد إسماعيل، الشورى وأثرها في الديمقراطية" (مدينة نصر، مصر، دار الفكر العربي، 1416هـ/1996م) ص189.
- 18- تفسير القرطبي ج12 (مصدر سابق) ص99.
- 19- معاش، مرتضى، "الحرية .. المدخل لحياة أفضل" مجلة النبأ (بيروت، المستقبل للثقافة والإعلام، السنة 6، العدد 46، 1421هـ/2000م) ص29.
- 20- الحرية .. المدخل لحياة أفضل (مصدر سابق) ص29.
- 21- بن حاج، علي، من وراء القضبان (لندن، الجبهة الإسلامية للإنقاذ، 1421هـ/2000م) ص13.
- 22- المقرم، عبد الرزاق بن محمد الموسوي، مقتل الحسين (بيروت، دار الكتاب الإسلامي، ط5، 1399هـ/1979م) ص275.
- 23- مقتل الحسين (مصدر سابق) ص229.
- 24- الشيرازي، محمد، الصياغة الجديدة لعالم الإيمان والحرية والرفاه والسلام (بيروت، مؤسسة الفكر الإسلامي للثقافة والإعلام، ط3، 1413هـ/1992م) ص310.
- 25- الشاهروdi، نور الدين، أضواء على النهضة الحسينية (طهران، مكتبة عماد للطبع والنشر، 1421هـ/2000م) ص22.

المصدر: الرأي الآخر للدراسات - لندن